الفكر الصوفي المسري وصراع مدرسة ألمرية مع السلطة السياسية في الأندلس والمغرب الاوسط

أ.محمد الأمين بوحلوفة
المعهد الوطني لتكوين الاطارات الدينية
بوزارة الشؤون الدينية والاوقاف غليزان "بن داود"

مقدمة:

بعد قرنين من الفتح الإسلامي لأرض الأندلس وتوطن المذهب المالكي، ظهرت على الساحة الدينية أولى الأفكار والممارسات الصوفية في الأندلس، حيث ينسب المؤرخون لابن مسرة الفضل في بعث أفكار التصوف فعند رجوعنا لسيرة هذا الزاهد العالم نجده قد تتلمذ في المشرق حوالي 218هـ/833م على يد علماء وزهاد بل يذهب البعض أن هدف ابن مسرة لم يكن طلب العلوم الشرعية بقدر ما كان في الرغبة بالتقاء عباد الله.

بدأت أفكار ابن مسرة تنتشر في بيئة أندلسية خصبة نقية، وقد اجتمع حول هذا العابد مجموعة من المريدين عهدوا على أنفسهم بأن يأخذوا عليه أسس التصوف ومنهاجه النقي الذي يسعى في الأخير لإيصال العبد إلى معرفة الله، لكن في خضم هذا ظهر طرف آخر لا يعترف بابن مسرة أو بعبارة أخرى شعبية هذا الزاهد كان يجب أن يوضع لها حد، فبدأت الإشاعات المغرضة تحوم حول العابد فقد اتهم أنه معتزلي وأنه من دعاة التفلسف الذي يدعو بالبحث في الذات الإلهية، فكل هذا شوه صورة الرجل مما جعله يدخل في صراع مع السلطة السياسية آنذاك والتي كانت متنوعة بين أموية ومرابطية وحتى موحدية، ما جعله يفر من السلطة ويلجأ إلى المشرق ولكن ما فتئت أفكاره أن وجدت لنفسها مكانا في الأندلس مرة ثانية وهذا في بدايات القرن السادس للهجري حيث أعادت مدرسة ألمرية فكر ابن مسرة على أيدي ثلاث صوفيين مشهورين مرتبين حسب قوة التأثير والجهد الذي بذلوه من أجل

بعث التصوف من جديد في الأندلس فكان أبو العباس ابن العريف أولهم ويليه أبو الحكم بن برجان ثم أبو بكر الميورقي حيث عاشوا حدود 536هـ/1124م.

إن التراث الصوفي المحلي في الأندلس لم يظهر إلا مع نهاية القرن الثالث للهجرة مع إبن مسرة ومريديه، فالمصادر المتوفرة لا تشير لظهور أي تيار صوفي متكامل سبق حركة إبن مسرة، لكن في نفس الوقت لا يمكن أن نطرح هاته الفرضية بحكم وجود زهاد وأولياء أمثال صالح البربري وشمس الفقراء والذين لم تخلد ذكرهم الدراسات التاريخية سوى إشارات يأتي بها إبن عربي محي الدين[1].

- حياة ابن مسرة:

محمد بن عبد الله بن نجيح، كنيته أبو عبد الله القرطبي[2]، يجمع أغلب من ترجم له على مولده في السابع من شعبان سنة 269 هـ[3]، الموافق ل 882 م على عهد الأمير الأموي محمد ينتسب إلى أسرة متواضعة النسب من الموالي، اشتهرت - هـ 238-273بنشاطها في المجال التجاري، إضافة إلى نشاطها في العلم [4] فوالده حسب "بالنثيا" ورغم كونه من أهل البيع والشراء، إلا أنه كان يهوى آراء المعتزلة، فهو الذي علم ابنه محمد علوم الدين والفلسفة [5] وبهذا يكون والده عبد الله من أوائل المشايخ الذين تلقى ابن مسرة العلم على أيديهم.

- مشايخه:

نذكر منهم محمد بن وضاح 287هـ ومحمد بن عبد السلام الخشني 286هـ وكلاهما من مدرسة الحديث[6] بعد ذلك انتقل ابن مسرة إلى مرحلة التعليم ونشر الآراء فاعتزل في جبال قرطبة "جبل العروس"[7] مع بعض الطلبة والمريدين وأخذ يلقنهم مبادئه الجديدة أما تلامذته فذكر ابن الفرضي في كتابه تاريخ علماء الاندلس أربعة فقط.[8]

إن رحلة ابن مسرة للمشرق مرتين ولا سيما للبصرة لا يمكن أن تخلوا من ترددهم على علمائها وخاصة المعتزلين منهم، فاحتمال أن ابن مسرة التقى بجمع من الصوفية والزهاد كبير، أمثال ذي النون 245 هـ وسري السقطي 235هـ وتعليمه هذا لم يقتصر على الحديث فقط بل كان يميل إلى حكايات الأولياء.[9]

لقد مكنت الرحلات التي قام بها ابن مسرة من أن يأخذ انطباعا مهما على متصوفة المشرق من زهاد وعباد وأن ينقل الموروث المشرقي إلى بلاد المغرب الإسلامي وخاصة الأندلس في حلة جعلته متميزا على المشرقي، ويمكن أن نفرض أن ابن مسرة تأثر ببعض الاعتزاليات وهذا ما سيظهر في بعض أطروحاته فكريا.

كان أثر الرحلة في فكر ابن مسرة بأن جعلته يتخذ منحى الاستقلالية عن أراء المشرق ويصنع لنفسه فكرا خالصا سمي بالفكر المسري وهذا ما سنلاحظه تدريجيا طوال حياته.

- فكر ابن مسرة:

إن سفر ابن مسرة للمشرق مرتين جعله يتردد على متصوفة المشرق ويعمق المعرفة لديه، وابن الفرضي وابن حيان يذهبان أن ابن مسرة قد عاشر الفقهاء والمعتزلة، لكن ابن مسلمة يلح على أن ما جعله يذهب للمشرق هو اتهامه بالزندقة فيضيف قائلا "إن ابن مسرة حين عاد إلى الأندلس كان يمثل الرجل التقي الورع فقد خدع سلوكه هذا العديد من الناس الذين أخذوا يترددون عليه".[10]

إننا عندما نرى ما كتبه مجموع المؤرخين والفقهاء على ابن مسرة نجد أن الصراع انتقل من صراع فكري إلى صراع شخصي.

يتضح جليا أن فكر ابن مسرة كان صوفيا متشبعا بالأفكار الإعتزالية حيث كان يقاسمهم بعض آرائهم، فابن حزم يورد لنا قولا "كان محمد بن عبد الله

بن مسرة الأندلسي يوافق المعتزلة في القدر ويقول بخلق علم الله وقدرته وكونها صفتان محدثتان ".[11]

فالتأويلات التي قدمها المؤرخون العرب أو الذين كتبوا عن ابن مسرة أمثال صاعد الطليطلي والقفطي وابن أبي أصيبعة كلها متناقضة ومتضاربة حيث يقدمونه على أنه فيلسوف باطني مأخوذ بالفلسفة الأمبيدوكولية [12] في حين ينسب إليه الحميدي أن فكره يعبر عن إشارات صوفية لم يسبقها به أحد، أما ابن الفرضي وابن حيان فيعزوان إليه أفكارا معتزلية ويذهبان إلى أنه يحبذ الإرادة ويؤمن بالثواب والعقاب وينكر الشفاعة وأنه يجزم مثلهم بأن العلم الإلهي حادث ومخلوق.[13]

أمام هذا الجدل يخرج الدكتور كمال إبراهيم جعفر حيث عثر على الكتاب الأول لأبن مسرة" التبصرة" ونشره عام 1978 م ففك حشدا من الألغاز عن فكر ابن مسرة [14] أولها أن كتاب التبصرة يحمل عنوان كتاب الاعتبار وهو يعمد في مؤلفه إلى التدليل على أن الإعتبار والوحي يؤديان عبر مسالك متغايرة إلى القناعات ذاتها فالاعتبار عند المسري إنما يتمثل في استعمال العقل لتبيين إشارات الله والتسامي درجة فدرجة حتى إدراك التوحيد فالعالم كله كما يقول إنما تشكل مخلوقاته وإشاراته سلما يرتقي الذين أبوا على درب الاعتبار لبلوغ ذرى إشارات الله".[15]

فالقرآن كما يؤكد لنا ابن مسرة إنما يدعونا بوضوح في مواضع عديدة إلى استعمال ملكة العقل والاعتبار من علامات الخلق ولا سيما عندما قال في أوليائه المستبصرين "ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا " آل عمران 191.

إن هذه الإشارة ترفع كل التباس، فالعملية الفكرية التي يدعوا إليها ابن مسرة تختلف نوعيا عن تفكير الفلسفة، فهي عبارة عن جنس من التأمل يقود حسب رأيه إلى البصيرة وبالتالي التعرف على الله الواحد حيث يقول

ابن مسرة "إذا فكروا أبصروا وإذا أبصروا وجدوا الحق على ما حكت الرسل عليهم السلام".[16]

لقد برهنت كتابات ابن مسرة على أنه أول صوفي يدعوا إلى التأمل والتدبر في الآيات الكونية وبهذا خالف الفلاسفة وأصحاب البدع وبذلك ظهرت تجليات الفكر المسري الصوفي، فكتاب الحروف وصف فيه ابن مسرة الفلاسفة وحكماء الأمم الضالة على أن فلاسفتهم تواصلوا دون عون النبوة إلى إدراك التوحيد[17] فهو يفصل بين التفكير المجرد عند الفلاسفة ويعتبره مؤديا للتهلكة.

لقد كان الفكر المسري صوفيا خالصا إذ برهنت كتابات علماء عصره على أن هناك صراع قائم بينه وبين السلطة والتي كانت تعتمد على الفقهاء الذين دخلوا مع ابن مسرة في جدال وتناحر نتيجة عدم فهم حقيقة الفكر المسري إضافة إلى خوف العلماء نتيجة وجود المذهب الشيعي في بلاد المغرب الإسلامي آنذاك لهذا إضطروا للدخول مع أي صاحب فكرة جديدة لا تكون تؤيد فكرهم وبهذا دخل أبن مسرة مرحلة الصراع بينه وبين السلطة.

- السلطة والصراع مع ابن مسرة:

إن التصوف باعتباره حركة زهدية في بداية أمره، فقد تخلى المتصوفة عن بهرج الحياة الدنيا وآثروا العزلة والاعتكاف وعبادة الله، والسلطة باعتبارها حامي الدين الإسلامي ومصالح المسلمين لم يكن هناك أي صراع بينهما، لكن بعد تطور التصوف دخل أهم المتصوفة في صراع مع السلطة والذي كان الفقهاء أهم ممثل لها.[18]

لقد كان ذي النون المصري ت 245هـ والحلاج 244هـ-309هـ أهم المتصوفة الذين تعرضوا لمضايقة السلطة، إذ الأول سجن على عهد المتوكل 232هـ-248هـ في بغداد لكنه أعاده لمصر أما الحلاج فقد قتل نتيجة اتهامه بالزندقة والتآمر على الدولة 309هـ.[19]

بعد هذه الحادثة التي أثرت في نفوس المتصوفة، خفت حدة التوتر بين السلطة والمتصوفة وبقيت الأولى تنظر إليهم نظرة شك وريب وهذا في المشرق، أما في المغرب الإسلامي والأندلس فنجد أن بدايات العلاقة بين الفريقين تبدأ مع ابن مسرة فكيف كانت العلاقة بينهما؟

حقيقة ابن مسرة لم يدخل في صراع حقيقي مع السلطة، لكن بعد وفاته يدخل تلامذته بالفكر المسري في صراع مع السلطة الأموية والفقهاء فرأوا أن المذهب المسري كما سموه خطيرا.[20] وحاولوا الرد على ابن مسرة ومقالاته، أما السلطة السياسية التي تمثل الخليفة "الأمير عبد الله" فلم تصدر أي عداء وهذا بسبب ثورة عمرو بن حفصون[21] والتي أتعبت بني أمية مما جعلها لا تعر أي انتباه للفكر المسري.

لقد تطورت علاقة القطيعة بين الفقهاء وفكر إبن مسرة إلى أن وصلت إلى حد إحراق كتبه سنة 305هـ/961م وإرغام تلامذته على التوبة.[22]

مع صعود عبد الله الثالث للعرش تغيرت المعطيات، حيث كان قاسيا مع المسريين خاصة القبول الذي لقته عند العامة، وقد صدر منشور خليفي يدين كل من يعتنق الفكر المسري سنة 340هـ[23]، رغم أنه لم يحدد العقوبات الواجب إنزالها ضد معتنق هذا الفكر.[24]

بعد تولي الحكم المستنصر شؤون الدولة 350/366هـ ساعد الأخير الفقهاء المتعصبين للتنكيل بالمريدين وهذا ما نلحظه عندما تولى شؤون القضاء بقرطبة محمد بن يبقى بن زرب[25] حيث يقول النباهي المالقي:

" الكشف عنهم وإستتابة من علم أنه يعتقد مذهبهم. ..فأحرق بين يديه ما وجد عندهم من كتبهم ".[26]

أمام هذا الجو المشحون بغضب مالكي ودعم سلطوي أموي، لم يجد أتباع إبن مسرة بدا من الهجرة كمخرج لهم إقتداء بما فعله ابن مسرة في مرات سابقة، ومن بين هؤلاء عبد الرحمن المهندس386هـ-458هـ كما يسمونه

إقليدس الأندلس، وقد أودع السجن أيضا صاعد بن فتحون بن مكرم السرقسطي وغيرهم مما طالتهم أيدي السلطة أو من هرب لإنقاذ حياته، ومجمل القول أن موقف السلطة من ابن مسرة وأتباعه كان معاديا تماما، حيث أن ابن مسرة كان أول أندلسي حاول التأصيل للتصوف في الأندلس والمغرب الإسلامي لكن بعد هذا تخرج مجموعة أخرى من تلامذته، فكونوا مدرسة عرفت بمدرسة ألمرية وتبعت الفكر المسري وطورته فكيف استطاعت هاته المدرسة بعث فكر ابن مسرة من جديد ومن هم العلماء الذين عكفوا على تطوير فكره ؟.

- مدرسة ألمرية وبعث فكر ابن مسرة:

إن الحديث عن مدرسة ألمرية يقودنا للمؤرخ الإسباني آسين حيث يعد من الأوائل الذين أشاروا لمدرسة ألمرية بل مختلف كتاباته كانت على ابن مسرة ودوره في التصوف الأندلسي.

يذهب آسين إلى أن مدرسة ألمرية إنما تمثل في جوهرها انبعاثا جديدا للحركة المسرية والفكر ككل وقد وجه آسين أبحاثه كلها على هاته المدرسة.[27]

بعد أكثر من عشرين سنة على وفاة ابن مسرة تتحول جماعته وتؤسس مدرسة قائمة بذاتها في قرطبة وجيان [28] لتمتد لمدينة ألمرية Almeria وقد أصبحت مركزا هاما من مراكز الصوفية، فظهر فيها محمد بن عيسى الألبيري399هـ، فنشط العلماء وكونوا جذور هاته المدرسة وتتحدث المصادر عن طائفة من تلامذته الذين تعصبوا لآرائه وذهبوا مذهبه وهناك نوعان:

التلامذة الذين تلقوا أصول أفكاره وصحبوه فمنهم خليل بن عبد الملك[29] وأيوب بن فتح.

فيما يذهب آسين أن رؤوس المدرسة الألميرية هم: أبو العباس بن العريف 536هـ وأبو بكر الميورقي 537هـ وأبو الحكم بن برجان 536هـ، وابن العريف كان شيخ هاته المدرسة، يضيف آسين أن الميورقي وابن برجان إنما هما

تلميذان لإبن العريف والشخصية المحورية هي ابن العريف[30]، ولا يتوقف آسين هنا بل يرى أن ثورة ابن قسي [31] إنما جاءت نتيجة تشبع الأخير بأفكار ابن العريف المسرية.

خلال العهد المرابطي نلمس نوعا من تدخل السلطة في الحياة الدينية إذ بصدور فتوى إحراق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي من طرف السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين1143/1107م، حرك القرار مدرسة ألمرية، وعلى رأسها علي البرجي والذي عبر كتابيا عن عدم موافقته لنص الفتوى والذي كان يعلم جيدا أن الفقهاء قد دبروها لأغراض عقدية سياسية، ولعل هذا الرفض يجعلنا نستنتج أن ألمرية كانت مركز مقاومة [32] ديني صوفي ضد المرابطين.

إن توجه مدرسة ألمرية* وبروز عدة علماء جعلها تدخل مرة ثانية في صراع مع السلطة المرابطية ولكن الآن في بلاد المغرب الإسلامي، إضافة إلى تجليات أخرى للفكر المسري في المنطقة.

- العلماء الثلاث وصراعهم مع السلطة في الأندلس والمغرب الأوسط:

1/ إبن العريف: أبو العباس بن محمد بن عطاء الله الصنهاجي المعروف بابن العريف، كان إماما في الزهد وقيل أنه يكتب بسبع خطوط لا يشبه بعضها بعضا[33]، أصله من طنجة وإنما سمي بالعريف لأنه كان صاحب حرس الليل، انتقلت أسرة والده لألمرية فكان من رجال المعتصم بن صمادح 448هـ وقد نشأ ابن العريف فقير الحال فدفعه أبوه إلى العمل عند حائك لكنه أبى إلا أن يتعلم القرآن، وتعلق بالكتب فكان أبوه ينهاه إلى أن تركه.[34]

درس على علماء ألمرية وقرطبة ومن شيوخه أبي الحسن البرجي بألمرية وأبي القاسم بن النحاس وأبي جعفر الخزرجي وسمع الحديث عن أبي علي الصدفي وغيرهم.[35]

تعاطى التدريس بسرقسطة وبعدها ذاع صيته في العبادة ثم تولى الحسبة ببلنسية بعد أن كان فقيها محدثا بدأ يميل للزهد والتصوف، حيث كانت

بينه وبين القاضي عياض مراسلات[36]، وفي ذلك يقول ابن الأبار " وتصدر بالمرية بلا قراء وقد قرأ بسرقسطة وولي الحسبة ببلنسية وبعد صيته في الزهادة والعبادة كثر أتباعه على طريقته الصوفية حتى نما ذلك إلى أمير الملثمين علي بن يوسف".[37]

إن هاته الإشارة التي أتى بها ابن الأبار يؤكدها آسين بإستقدام الثلاثة من طرف السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين وهو يقول أن هاته الدعوة لا تزال لغزا بالنسبة لجميع المؤرخين فيجهل السبب الحقيقي لهاته الدعوة.[38]

وابن العريف ألف العديد من الكتب منها أنساب مشاهير الأندلس في خمسة أسفار ضخمة [39] كما له رسائل منها مفتاح السعادة والمؤلف المشهور هو محاسن المجالس الذي وصلنا وقبل أن نذكر كيف انتهى بها المطاف عند الأمير المرابطي نعرج على الشيخ الثاني.

2/ إبن برجان:

هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال اللخمي الإفريقي ثم الإشبيلي العارف شيخ الصوفية [40]، كان بارعا في الحديث وعلم الكلام والتصوف وله تفسير القرآن[41] يذكر بروكلمان مخطوطا له بعنوان كتاب تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب.

لقد لقي ابن برجان أسوأ مصير على يد الأمير المرابطي علي بن يوسف الذي استقدمه هو كذلك لمراكش حيث يقول وهو في طريقه إليه "والله لا عشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتي" ولما وصل إلى مراكش سئل في مسائل عيبت عليه ولكنه توفي في مراكش سنة 536هـ وأمر الأمير بأن لا يصلى عليه وأن يطرح في مزبلة [42] وهذه إشارة كبيرة للمعارضة التي لاقاها العلماء الثلاثة من طرف السلطة، في هذه الأثناء يخرج ابن حرزهم ويفتي بوجوب حضور جنازة ابن برجان حيث سيكون أبي مدين بن شعيب نزيل

بجاية ودفين تلمسان أحد تلامذته الكبار الذين نهل منهم التصوف المسري، وهكذا جنا ابن برجان ما دعا له من صوفية المسري بالتصفية الجسدية.

3/ الميورقي:

محمد بن الحسين بن أحمد بن يحي بن بشير الأنصاري أبو بكر المعروف بالميورقي من سكان مدينة غرناطة فقيه ظاهري وخبير بعلم الأنساب والحديث [43]، وقد ساهم في مزج التصوف المشرقي والأندلسي.

بعد تجواله في المشرق ونهله من كبار العلماء عاد للأندلس وأخذ عنه الناس، فبقي هكذا ينشر التصوف على طريقة ابن مسرة حتى دعته السلطة المرابطية وسئل لكنه إستطاع النجاة بنفسه فرحل للمشرق وبعد عودته أقام بالمغرب الأوسط في أحد حواضره ببجاية فحدث بها سنة 537هـ[44]

يورد لنا عبد الملك المراكشي عن نهاية الميورقي بأنه أوقف وجلد وأطلق سراحه فذهب بعد هذه الحادثة للمشرق ثم بقي وعاد للمغرب[45] " وصار أخيرا إلى بجاية هاربا من صاحب المغرب. ..... وحدث هناك وسمع حتى سنة 537هـ".[46]

لكن في نفس السنة يقتل الميورقي 1142م /537 هـ وكان قتله من طرف السلطة المرابطية فكان الثاني ضمن قائمة العلماء الثلاثة.

بعد أن استعرضنا محنة هؤلاء العلماء نعرج إلى ابن العريف، ولعل الذي دفعنا لكي نأخذ طريقة وفاته بهذا الشكل هو الغموض الذي طرح في ملابسات وفاته.

إن استدعاء علي بن يوسف بن تاشفين لابن العريف إلى مراكش سببه ليس دقيقا فإذا كان ابن بشكوال يذكر "وسعى به الى السلطان فأمر بأشخاصه إلى حضرة مراكش فوصلها[47] "في حين أن ابن الأبار يرجع السبب إلى الشعبية التي لا قتها أفكارهم ودعوتهم الصوفية المسرية لدى الناس

"وبعد صيته في الزهادة والعبادة كثر أتباعه من الصوفية[48]" هذا النص فيه إشاراتان:

الأولى: أن ابن العريف كان يسعى جاهدا لنشر التصوف على الطريقة المسرية، وهذا ما أكسبه شعبية له ولدعوته .

ثانيا: عرفت السلطة أن انتشار أفكاره وكثرت مريديه هو بمثابة تهديد حقيقي للدولة مما سينجر عليه معارضة ولهذا سعت السلطة بل سارعت في استدعائه لمراكش وهذا ما جرى بالفعل حيث كان ابن قسي أحد مريدي أو أتباع ابن العريف، والذي ثار على السلطة وبذلك كان تخوف المرابطين من ابن عريف في محله.

نرجع لما أورده إبن الابار أيضا حيث يقول "أن فقهاء بلده اتفقوا على انكار مذهبه فشكوا به الى السلطان وحذروه من جانبه فأمر بإشخاصه إليه من ألمرية. .... وكانوا نمطا في الانتحال والأتصاف بصلاحية الحال". [49]

وكان المتسبب في استدعائه لمراكش القاضي ابن الأسود الذي كان بألمرية حيث خوف السلطان من أمر ابن العريف فأمر عامله على ألمرية فأستدعي وقد دخل مكبلا كما تسرد لنا الروايات، وأن الأمير أحسن لإبن العريف وخصه بحفاوة الكرم لكن هذا الأمر يتعارض مع ما فعله مع ابن برجان والميورقي وهذا لا يزال محور شك عند المؤرخين، وتبقى فرضية وهي أن الأمير ربما لم يرد أن يصفي ابن العريف في منطقة المغرب الإسلامي لأسباب نجهلها، وبالفعل عند رجوعنا لمقتله نجده قد قتل مسموما وهو عائد إلى ألمرية عن طريق البحر وقد قيل أن إبن الأسود القاضي هو من قتله ولكن يبقى مجرد خطة رسمتها السلطة قصد إبعاد الشبهة عن نفسها لأنها سبق وأن قتلت صاحباه الميورقي وابن برجان.

لما نتصفح في روايتين، ما قاله ابن الأبار أن ابن العريف مات بالسم وابن بشكوال حيث قال "وندم السلطان على ماكان منه في جانبه" وهذا اعتراف من جانب السلطان بأنه هو المسئول عن وفاته أما التادلي فيخبرنا ما قاله

السلطان المرابطي "لأعذبنه ولأسمنه كما فعل بإبن العريف" هنا يقصد قاضي ألمرية ابن الأسود.[50]

بعد كل هذا يتضح أن ابن العريف توفي ليلة الجمعة صدر الليل ودفن يوم 23 صفر 535 هـ ويمكن الخروج بأن الصراع الذي كان قائما بين المتصوفة والفقهاء تجسد من خلال تصفية أبرز رواد مدرسة ألمرية، وهذا لشعبية أفكارهم في الأندلس والمغرب وقد أورد لنا أصحاب السير روايات متعددة تتفق كلها على قتل الثلاثة بسبب أفكارهم الصوفية المسرية.

الصوفية المسرية في المغرب الأوسط:

كما أسلفنا الذكر فإن الميورقي بعد أن جلد، رجع للمشرق ثم استقر بحاضرة بجاية والتي كانت ضمن إقليم المغرب الأوسط، واحتمالية الميورقي في أنه نشر الصوفية وارد جدا، حيث لو رجعنا لحادثة ابن برجان نجد أن ابن حرزهم الذي دعا الناس لحضور جنازة ابن برجان كان من بين معلمي الشيخ أبي مدين بن شعيب وهذا دليل على أن أبي مدين الذي درس ونشر تعاليم التصوف ببجاية خلال العهد الموحدي قد وصلت إليه أفكار ابن مسرة بحكم شيخه ابن حرزهم إضافة أن ابن عربي محي الدين أخذ عن أبي مدين والذي طور الفكر المسري وأضفى عليه خصوصية مشرقية.

مجمل القول أن الميورقي بعد محنته لجأ إلى بجاية أين أستطاع التدريس ونشر التصوف لكنه سرعان ما يلقى مصير التصفية وبعدها بزمن يأتي سيدي بومدين والذي أحدث التغيير بل ساهم بشكل كبير في نشر التصوف في المغرب الأوسط.

يبدوا لنا في خاتمة الأمر أنه علينا أن نعيد النظر في مدرسة ألمرية، فعلى الرغم من أنه لا ريب في أن القرن 5هـ شهد اندفاعا للصوفية الأندلسية والتي كانت ألمرية مسرحا لها فإنه لا يمكننا أن نهمل الدور الذي لعبه ابن مسرة في نشر التصوف في القرون الأولى.

لقد اتبع المتصوفة السنة في مواجهة السلطة الدنيوية ثلاث مواقف متباينة بحسب تباين ظروفهم وطباعهم فمنهم من سلم أمره لله وحرم على نفسه التدخل في شؤون الدولة والتعامل معها، ومنهم من توقع أن يعود تدخله بالخير على الجميع فاختار التقرب من أعوان السلطة، كأمثال أبي العباس القنجائري المري، أما الصنف الثالث وأكثرهم فقد التزموا الأمر الإلهي "وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم". فكانوا ينتقدون الخليفة والأمراء داعيين إياهم للصواب مع الطاعة لهم إذا هم التزموا الطريق المستقيم.

- الخاتمة

لقد شهدت منطقة المغرب الإسلامي والأندلس بروز أول صوفي دعا إلى إعتناق الأفكار الصوفية، وأصبح ابن مسرة أول من أدخل التصوف لهاته المنطقة وقد لاقى في بدايات أمره كل أنواع المضايقات ومع مرور الزمن تشكلت النواة الأولى لمريديه وسعت جاهدة لنشر أفكاره.

شهدت ألمرية ميلاد أول مدرسة صوفية كانت بقيادة ابن العريف والذي رغم مضايقات السلطة له إلا أنه كسب شعبية كبيرة مكنته من أن يترك الأثر الكبير في الناس وقد كلفته دعوته هاته الموت، وهنا اتضح أن السلطة كانت تسعى بمختلف الوسائل للحد من نشاط هذه المدرسة بدفع من الفقهاء الذين رأوا أن كل معارض أو كل من يأتي بأفكار جديدة يصنف ضمن المغضوب عليهم وبذلك استاطعت السلطة لفترة القضاء على رؤوس المدرسة.

كانت ثورة ابن قسي بمثابة النتيجة الحتمية على سلطة المرابطين، ونتاج الفكر المسري حيث أنهكت الدولة في الأندلس وأضعفتها ما جعلتها تعجل بسقوطها مما سمح لأبن قسي بحكم مقاطعة شلب.

كان المغرب الأوسط ضمن الحراك الديني الصوفي الذي عرفته الأندلس إذ كانت بجاية معقلا مهما للميورقي الذي استقر بها ونشر أفكاره الصوفية فيها

وهذا ما جعل بعده أبي مدين يستقر بها ويؤسس لصوفية المغرب الأوسط بخصوصيتها.

في نهاية الأمر يجب أن نسلم أن مدرسة ألمرية كان لها حضور قوي في نشر تعاليم التصوف في المغرب الإسلامي والأندلس ولعل ما جرى لعلمائها إنما هو طبع غلب على أهل الأندلس فكما يقول أحد المؤرخين أنهم كلما دخلت عليهم فكرة أو مذهب قوبل بالرفض والنبذ لكن مع مرور الوقت يصبح الذي رفض بالأمس معتقد اليوم وهذا ما حصل مع التصوف الأندلسي.

- هوامش البحث ومكتبته:

1 سلمى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان،1992، ط2، ج2،ص1262.

2 -عبد المجيد الصغير، تجليات الفكر المغربي، دراسات ومراجعات نقدية في تاريخ الفلسفة والتصوف بالمغرب،ط1

3 -محمد رضا كحالة، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، 9/ص459.

4- محمد الوزاد، الملامح العامة لشخصية إبن مسرة وأرائه، مجلة كلية الأداب والعلوم الإنسانية، ع6، 1983 فاس، ص 36.

5- أنخل جانتالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمةحسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص 339.

6- عبد المجيد الصغير، تجليات الفكر المغربي دراسات ومراجعات نقدية في تاريخ الفلسفة والتصوف بالمغرب، شركة التوزيع والنشر المدارس، الدار البيضاء، المغرب، 2000م، ص 163 .

7- محمد علي أبو الريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية، مصر، القاهرة، ص 415-

8- سلمى خضراء الجيوسي، مرجع سابق، ص 1264.

9- المصدر نفسه، ص 1264.

10- Cruz Hernandez. La persecucion anti masarri durant el riendo. Vol. 2. P.145.

11- سلمى خضراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 1229

12 - محمد بن الفتوح الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر بلاد الأندلس، دار الرسالة للنشر والتوزيع، دمشق، 1997، ص 215.

13- سلمى خضراء الجيوسي، مصدر سبق ذكره، ص 1229.

14- عبد الله ابن مسرة، الاعتبار، تحقيق كمال إبراهيم جعفر، مطبعة الفكر الإسلامي، القاهرة، 1978، ص 75

15- المصدر نفسه، ص. 350

16- المصدر السابق، ص. 350

17- المصدر نفسه، ص. 351

18- فاطمة الزهراء جدو، السلطة والمتصوفة في الأندلس عصر المرابطين، ماجستير، 2008/2007م، جامعة قسنطينة، ص. 08

19- الحلاج الحسين بن منصور أبو مغيث من أهل بيضاء بفاس ونشأ بواسط بالعراق صحب الجنيد واتهم بالزندقة وقد قتل ببغداد عام 309هـ أنظر / طبقات الصوفية، السلمي، تح نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م ص 15

20- محمد ألوزاد، مرجع سابق، ص. 117

21- وهو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القس هكذا نسبه ابن حيان أول ثائر كان بالأندلس وهو الذي افتتح الخلاف بها وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن في 270هـ خرج بجبل يشتر من ناحية رية ومالقة وانضم إليه الكثير من جند الأندلس وابتنى قلعته المعروفة وقد مات سنة 306هـ بعد 37 سنة خاضها في حروبه مع بني أمية أنظر / عبد الرحمن بن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1994م، ج4، ص 515

22- كمال إبراهيم جعفر، من مؤلفات ابن مسرة المفقودة، مجلة كلية التربية، القاهرة، عدد03، 1978 م، ص.ص:27-36.

23- فاطمة الزهراء جدو، السلطة والمتصوفة في الأندلس، مرجع سابق، ص. 28

24- عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م، ص. 433

25- شيخ المالكية أبو بكر، محمد بن يبقى بن زرب بن يزيد القرطبي الفقيه وله مؤلف في الرد على ابن مسرة، وعدة تصانيف مات في رمضان سنة 381هـ أنظر/ الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2001م، ص 268

26- النباهي المالقي، تاريخ قضاة الأندلس، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تح مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية بيروت، 1995م، ص 105

27- Asin palacios iben massara y su escula ongenes de la filosofia hispana musulmana p.p: 142 -143

28- تقع بين مرسية وجيان هي على ساحل البحر مرسى الأندلس تقصدها السفن وهي من بناء عبد الرحمن الناصر 344هـ/ أنظر الزهري أبو عبدالله، كتاب الجغرافيا، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص 101

29- خليل بن عبد الملك من أهل قرطبة صحب ابن مسرة وتفقه في كتبه وكان غاية في الزهد توفي سنة 345هـ، أنظر/ ابن الأبار، الحلة السيراء، تح حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1985م، ط02، ج 1، ص356

30- الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مرجع سابق، ص 1274

31- أحمد بن الحسين أبو القاسم ابن قسي 546هـ، ثائر أندلسي خلال العهد المرابطي، رومي الأصل من بادية شلب استعرب واعتنق الاسلام وقد كثر مريدوه قام بثورته ضد المرابطين لكن سرعان ما هرب وقد ولاه الموحدون إمارة شلب وقد قتله أهلها له كتاب خلع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين أنظر / الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت،2000م، ج6،ص 312

* ألمرية مدينة كبيرة من كورة ألبيرة الأندلس منها يركب التجار وفيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب ويعمل بها الوشي والديباج ودخلها الإفرنج سنة هـ542 واسترجعها المسلمون سنة 552هـ، أنظر /ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977، ج05،ص119

32- كلود عداس، التصوف الاندلسي وبروز ابن عربي، اطروحة دكتوراه، جامعة بيركلي، 1991 م، ص 24

33- الضبي، أحمد بن يحي بن أحمد، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تح ابراهيم الابياري، القاهرة، 1989، ج1، ص 209

34- ابن الابار، محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، تح ابراهيم الابياري، القاهرة، 1989م، ص. 146

35- المصدر نفسه، ص. 27

36-ابن الابار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تح ابراهيم الابياري، القاهرة، 1988م، ص.70
37- ابن الابار، المعجم، مصدر سبق ذكره، ص. 27
38- كلود عداس، التصوف الاندلسي وبروز ابن عربي، مرجع سابق، ص. 258
39- المقري، احمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تح محمد يوسف الشيخ البقاعي، مؤسسة الهداية للنشر، لبنان، 1998م، ج4،ص19
40- عبد الحميد أحمد السامرائي، مدرسة ألمرية الصوفية، كلية التربية للبنات، جامعة تكريت، العراق، ص 147
41- المرجع نفسه، ص. 150
42- كلود عداس، التصوف الاندلسي وبروز ابن عربي، مرجع سابق، ص. 1278
43- ابن الأبار، المعجم، مصدر سابق، ص 146
44-المصدر نفسه ص 146
45-عبد الحميد أحمد السامرائي مدرسة ألمرية، مرجع سابق، ص. 154
46- المقري، نفح الطيب، مصدر سابق، ج 2، ص. 300
47- ابن الأبار، الصلة، ج1، مصدر سابق، ص. 137
48-ابن الأبار، المعجم، مصدر سبق ذكره، ص. 27
49- ابن الابار، المعجم، مصدر سابق، ص. 27
50-كلود عداس، مرجع سابق، ص 1287